سورة الزلزلة

سورة الزلزلة مع السور الثلاثة التالية لها(العاديات – القارعة –التكاثر) موضوعاتها متقاربة؛ إذ أنها تتكلم عن البعث، وهي قضية يركز عليه القرآن المكي، وتبدو أهميتها في باب الإيمان بالله ﷻ، أو في باب الإيمان عموما على درجة كبيرة؛ ذلك أن الإيمان باليوم الآخر هو الذي يضبط العمل، ويحمل الإنسان على التقوى، ويحجزه عن غشيان محارم الله تعالى.

مقصد السورة:

سورة (الزلزلة) مقصدها العام هو: تقرير الإيمان باليوم الآخر وما يتضمنه.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾: (إِذَا) ظرفية.

(زُلْزِلَتِ)أي: حركت تحريكا شديدا، ورجت، كما قال في الآية الأخرى﴿رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾﴾ [الواقعة:٤] فالزلزلة هي التحريك الشديد؛ بدليل قوله(زلزالها)، وكأن هذا أمر معروف بَيِّن، فعرفه بالإضافة إليها (زلزالها) وذلك أنه في يوم القيامة يقع تغيرات كونية، فمن ذلك: أن الأرض تبدل غير الأرض، فهذه الأرض الكروية القارَّة يقع لها اهتزاز عظيم، وتمد مد الأديم ، وتعود كالقرص أوالخبزة ليس فيها معلم لأحد، لا جبل يشرف عليه، ولا وادي يكن من فيه، أرض لم يسفك عليها دم، وذلك لكي تتسع للمحشر العظيم.

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ الأرض هي التي ذكرت آنفا.

(أثقالها) أي: ما في بطنها من الموتى المقبورين.

وعبر بعض المفسرين بقولهم: كنوزها ونحو ذلك، ولكن المقصود هو ما في بطنها من المقبورين؛ إذ أن المقصود ها هنا هو إثبات البعث، ولا شك أن الأرض قد امتلأت بالقبور، والأجداث، كما قال المعري:

رب قبر قد صـار قبرا مرارا ضاحكٍ من تزاحم الأضداد

سر إن اسرطعت في الهواء رويدا لا اختيالا على رفات العباد

إلى آخر ما قال.

فلا شك أن هذه الأرض من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا قيام الساعة مستودع للأموات ، فهي بمنزلة الأم لهم، ثم يوم القيامة تلفظ ما فيها، وتخرج ما في رحمها، فمن كان في بطنها خرج على ظهرها.

(وَقَالَ الْإِنْسَانُ) الإنسان هنا.

- يحتمل أن يكون جنس الإنسان.

- ويحتمل أن يكون المكذب والمنكر بالبعث؛ وربما يؤيد هذا الثاني كون هذا الاستفهام استفهام إنكاري (وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا) فهذا الاستنكار إنما يقع من الكفار؛ كما أخبر الله ﷻ بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۖ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس:٥١-٥٢] فهذا التعجب والاستنكار منهم يؤيد أن المراد بالإنسان ها هنا منكر البعث على وجه الخصوص

(مَا لَهَا) يعني: ما الذي جرى لها؟ ماذا حل بها؟

وقارنوا بين هذين القولين:

- قول من يقول (﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۖ﴾ [يس: ٥٢].
- وبين من يقول ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

الأول: مدهوش، مفزوع، مصدوم، مفجوء.

والثاني: مطمئن، مصدق، مستوعب لما جرى.

(يَوْمَئِذٍ) أي: في ذلك اليوم الموصوف.

(تُحَدِّثُ) انطقها الله الذي أنطق كل شيء؛ فإن الله ﷻ قادر على إنطاق الجماد، وقادر على إنطاق أعضاء الإنسان يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ

﴿٢٤﴾ ﴿[النور:٤٢]فالله على كل شيء قدير، فمن قدرته أن تخبر هذه الأرض بما عمل عليها من خير أو شر.

وهذا رد على هؤلاء الماديين والعقلانيين، الذين حجروا عقولهم في الشيء المادي المحسوس، الذي يقع تحت الحواس، ولا تتسع أفاقهم، لأن يخلف الله تعالى هذه السنن، ويجري الأمور على غير النسق الذي هو عليه.

﴿أَخْبَارَهَا﴾ أي تخبر بما عمل عليها من خير أو شر.

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ الباء هنا للسببية، والتقدير: لأن رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا، أو بسبب أن رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا.

والمقصود بـ(أَوْحَى لَهَا) يعني: أعلمها، وأمرها بالتحديث.

وقد ورد في ذلك حديث أبي هريرةﷺ قَالَ : قرأ رَسُول اللهﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا

﴿٤﴾ ﴿[الزلزلة٤] ثُمَّ قَالَ :"أَتَدْرونَ مَا أَخْبَارهَا ؟ قالوا : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ"فإنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بما عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا تَقُولُ : عَمِلْتَ كَذَا وكَذَا في يَومِ كَذَا وكَذَا فَهذِهِ أَخْبَارُهَا"رواه أحمد والترمذي[1]

وقد جاءت أيضا أثارا أخرى في أن البقاع تشهد لمن مر عليها، أو عمل عليها عملا.

وهذه الآية أصل في أن الأرض تحدث وتخبر بما جرى على ظهرها، وهي من شهود الله.

فإن شهود الله كثر:

- فمما يقيم الله تعالى به الحجة على الظالم وعلى الكافر: أن تشهد عليه الملائكة الكرام، ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف:٨٠].
- ومن إقامة الله الحجة: أن تشهد عليهم جوارحهم؛ كما جاء في حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ

---

[1] المسند (8854)، سنن الترمذي (2429) وضعفه الألباني .

؟ قَالَ : قُلْنَا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ ، يَقُولُ : يَا رَبِّ ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ ؟ قَالَ : يَقُولُ : بَلَى ، قَالَ : فَيَقُولُ : فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ [٢] عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي ، قَالَ : فَيَقُولُ : كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا ، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا ، قَالَ : فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ ، فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ : انْطِقِي ، قَالَ : فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ ، قَالَ : ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ ، قَالَ : فَيَقُولُ : بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا ، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ [٣]"رواه مسلم [٤] فهذا سبب ضحك النبي ﷺ.

- ومن شهود الله تعالى: هذه الأرض، فإنها تشهد أيضا بما عمل على ظهرها؛ فحجة الله بالغة.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾(يَصْدُرُ)أي: ينصرف، ويرجع. فالناس يصدرون من موقف الحساب، بمعنى أنهم ينصرفون إلى مآلاتهم.

(أَشْتَاتًا) أي: متفرقين بحسب ما أسلفوا من العمل، فهم ليسوا على نسق واحد، ولا يساقون مساقا واحدا، بل لكل وجه ولكل طريق، كما كانوا أشتاتًا في الدنيا.

(لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ) أي:

- لِيُرَوْا نتائج وجزاء أعمالهم؛ لأنه بعد صدورهم يكون قد قضي بينهم ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى:٧]، وهذا الراجح في المعنى المراد.
- ويحتمل أن يكون المعنى: لكي يروا ما قدموا من خير، أو شر، ويجازوا عليه، فتشمل: رؤية العمل بمعنى أن الله يوقفهم عليه، والمجازاة عليه.

وربما يؤيد الأول أنه جعلها بعد قوله: (يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا) ؛ فصدورهم هذا يكون بعد أن أروا أعمالهم، فبقي أن يروا جزاء أعمالهم.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾

---

[٢] لا أجيز اليوم: أي: لا أمضي ولا أقبل علي شاهدا (جامع الأصول في أحاديث الرسول)لابن الأثير.

[٣] أناضل: أي أدافع وأجادل. من (شرح مسلم للنووي).

[٤] صحيح مسلم (2969).

(الفاء) للتفريع.

والمقصود بـ (مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) يعني: وزن ذرة، والذرة: هي النملة الصغيرة، ويضرب بها المثل في دقة الشيء، وحقارته، وصغره.

وهذا هو الذي تفهمه العرب من لغتها، ودعك من قوم أرادوا أن يحملوا القرآن على غير مراده، فزعموا أن الذرة هنا هي الذرة المعروفة في علم الفيزياء الآن، (الذرة الفيزيائية) فإن هذا لم يكن معروفا عند المخاطبين، ولا يمكن أن يخاطب الله الناس بغير ما يعلمون .

فالحساب على مثاقيل الذر، وهذا يدل على أن كل ما يصدر من الإنسان من خير، أو شر، فهو محفوظ كما قال قائلهم﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾[الكهف49] فهناك دقة في الإحصاء وعدل في الأحكام.

الفوائد المستنبطة

الفائدة الأولى: هول يوم القيامة، وانقلاب الأرض.

الفائدة الثانية: إثبات البعث.

الفائدة الثالثة: مفاجئة منكري البعث .

الفائدة الرابعة: قدرة الله على إنطاق كل شيء.

الفائدة الخامسة: إثبات الجزاء

الفائدة السادسة: كمال عدل الله، وإحاطته، وإحصائه؛ حيث انه لم يترك صغيرة، ولا كبيرة، من خير، أو شر، إلا أحصاها، وأحاط بها، وجازى عليها بالعدل.

سورة العاديات

﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ٥ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ١١ ﴾

مقاصد السورة:

1- إثبات البعث، والحساب.

2- بيان حال النفس المنكرة للبعث، وتوصيفها.

﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ٥ ﴾ هذه ثلاثة أقسام أقسم الله بها، والمقسم به هي الخيول، على القول الراجح، في المواضع الثلاثة:

(وَالْعَادِيَاتِ): هي الخيل التي تجري جريا شديدًا.

(ضَبْحًا): أي أنها تحمحم، والحمحمة: الصوت الذي يصدر من جوف الفرس، في حال شدة العدو، فإنه يسمع من صدره هدير، هو الضبح الذي ذكره الله تعالى.

(فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا): الفاء هنا للتعقيب، يعني: أنها إذا عدت أورت.

- (الْمُورِيَاتِ) على القول الراجح، الخيل حين توري النار، عند وقع حوافرها على الصفا، فإنها تحدث هذا الشرر، الذي هو القدح. وهذا ينم عن شدة وقعها، وسرعتها.
- وقيل في معنى (الْمُورِيَاتِ) : جماعات المقاتلين، الذين يقدحون الزناد، ليشعلوا النار في الحروب.
- وقيل المراد بـ(الْمُورِيَاتِ): الألسنة! فإن اللسان يثير الفتنة بما يلقيه، وما يهيجه في النفوس. ولا ريب أن الكلمة أحيانًا تفعل فعل النار في الهشيم، فمن الألسنة ما تذكي في النفوس شرر الحمية، والغضب.

- وقيل إن (المُورِيَاتِ) : مكر الرجال، بمعنى: أن ما يحيكه الرجال من خطط، كإيراء النار، ولو لم تتكلم الألسنة. ولهذا استعاذ النبي ﷺ من غلبة الرجال، كما جاء في حديث أَنَس بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ، وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ 4، وَالْجُبْنِ، وَالْبُخْلِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ)رواه البخاري[٥] .
- وقيل: إنها الإبل خاصة.
- وقيل: بالعموم، وإلى هذا ذهب الحافظ، إمام المفسرين، ابن جرير الطبري[٦]، إلى أن كل ما يتناوله الإيراء، فهو داخل في عموم الآية، فتشمل الخيل التي تقدح بحوافرها على الصفا، فينطلق الشرر، والإبل، والرجال المقاتلة التي تقدح بالزناد، والألسن الحادة التي تستثير العواطف والانفعالات، والخطط الماكرة، التي تبدر عن الدهاة من الرجال. فكل ذلك يدخل في عموم (الموريات).

والذهاب إلى العموم يجمع الأقوال، لكن سياق الآيات يشعر بأنها موصوف لشيء واحد؛ لأنه ابتدأ بالعاديات، التي هي الخيل، إلى أن قال (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا) أي: الغبار، فيبعد أن يتفرق الوصف، أو يتخلله في أثنائه ما ليس منه، فالأقرب: أن تحمل على الخيل، فقط.

وللخيل فضيلة، ومزية، ففي الحديث: "الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"متفق عليه[٧] فالخيل إلى يومنا هذا، لا تستغني عنها الجيوش، فلا يزال في الفرق العسكرية الحديثة ما يسمى بـ(الخيالة). وستبقى إلى يوم القيامة، حتى إن بعض أحاديث الفتن والملاحم، فيها ذكر الخيول، والقتال عليها، في آخر الزمان.

﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ ﴾: هي الخيل، تقتحم أول النهار، وذلك أن أحسن أوقات الإغارة في الصباح، كما قال الله ﷻ ﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الصافات: ١٧٧]. وقيل: إن

---

[٥] صحيح البخاري (6369).

[٦] تفسير الطبري (578/24).

[٧] صحيح البخاري (2849)، صحيح مسلم (1873).

المراد: أهلها، يعني القوم المغيرون هم المغيرات. والأقرب: أن نحملها على ما حملنا عليه ما سبق، أنها الخيل نفسها ولهذا قال ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ ﴾.

(فَأَثَرْنَ) أي: هيجن.

(بِهِ) يعني: بمكان العدْو، أو: في ذلك الوقت، الذي هو الصبح.

(نَقْعًا) النقع: هو الغبار المتصاعد، يقول حسان:

عدِمْنا خَيلَنا إن لم تروها ... تثيرُ النقعَ موعدُها كَداء[٨]

وذلك أن الخيول إذا اقتحمت، وصالت، ارتفع لها غبار، إلى عنان السماء، من جراء الصولات والجولات المتتابعة.

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ ﴾: إما بالغبار، أو بالمكان. يعني: سرنَ في وسط جمع العدو. وهذه الآيات إذا أريد بها الخيل، فتحمل على ما تصنعه في أثناء الغزو، والحروب. وذهب بعض المفسرين، إلى أن المراد الإبل، وأن هذا محمول على ما يقع في المناسك؛ لأن الغالب فيها ركوب الإبل، وقالوا ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾أي: مزدلفة، لأن من أسمائها (جمع). ولكن القول الأول أولى.

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ ﴾ هذا جواب القسم. والمراد بالإنسان، هنا: الكافر، المنكر. ومعنى كنود: جحود لنعمة ربه، غير شكور. وذلك بأن لا يثني بالنعمة على مسديها، ولا يستعملها في مرضاته، بل يستعملها في معصيته. فبهذا يكون كنوداً.

وهذا مثار عجب!! فهذا الإنسان الكنود، خلقه الله، ويعيش في أرض الله، ويأكل من رزق الله، ويشرب من ماء الله، ثم يعبد غير الله! سبحان الله! ما أشد هذا الجحود؟! لو كان للواحد منا عبد رقيق، اشتراه بحر ماله، وألبسه، وأسكنه، وأطعمه، وسقاه، ثم ذهب يخدم غيره، لعد ذلك كفرانًا، وجحودًا، وأوقع فيه المثلات. والله تعالى رب الناس، وملك الناس، وهو خالقهم، ورازقهم، ومدبر أمورهم، فهو إلههم. ومع ذلك يعبد الكافر غيره، فلا شك

---

[٨] كَداء: لجبل بأعلى مكة (دخل النبي ﷺ مكة منه). (القاموس المحيط مادة كدا).

أن هذا أعظم الجحود، وأظلم الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾: اختلف في مرجع الضمير:

- فقيل: مرجعه للإنسان، يعني: إن الإنسان شهيد على كنوده، وجحده نعمة ربه. وهذا المعنى هو المتبادر إلى الذهن. والمراد بشهادته لسان الحال، لا لسان المقال، فإنه لا يكاد أحد يشهد على نفسه لفظاً بالجحود. فأفعاله، وتصرفاته، دالة على جحده لنعمة ربه، فهو لا يرى لله فيها حقًا، ولا يرفع بطاعته رأساً، ولا بمعصيته بأساً. فهذه شهادة.
- وقيل: إن مرجع الضمير إلى الله ﷻ ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾، يعني: إن الله ﷻ شهيد على كنود عبده، وجحوده. والأول أولى.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾: جملة مؤكدة بإن. والواقع شاهد بذلك. والمراد بالخير هنا، المال، والعرَض، والمتاع. وقوله: (لَشَدِيدٌ): أي شديد التعلق به، شديد الحرص عليه. ولا شك أن هذه صفة بشرية، طبعية. فإن الإنسان بطبعه يحب الخير، يحب المال؛ ففي حديث أَنَسٍ ﷺ قال: أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَالٍ مِنْ الْبَحْرَيْنِ، فَقَالَ: انْثُرُوهُ فِي الْمَسْجِدِ، فَكَانَ أَكْثَرَ مَالٍ أُتِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَهُ الْعَبَّاسُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْطِنِي، إِنِّي فَادَيْتُ نَفْسِي، وَفَادَيْتُ عَقِيلًا، قَالَ: خُذْ، فَحَثَا فِي ثَوْبِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فَقَالَ: أْمُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ إِلَيَّ، قَالَ: لَا، قَالَ: فَارْفَعْهُ أَنْتَ عَلَيَّ، قَالَ: لَا، فَنَثَرَ مِنْهُ، ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ فَلَمْ يَرْفَعْهُ، فَقَالَ: فَمُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ عَلَيَّ، قَالَ: لَا، قَالَ: فَارْفَعْهُ أَنْتَ عَلَيَّ، قَالَ: لَا، فَنَثَرَ مِنْهُ، ثُمَّ احْتَمَلَهُ عَلَى كَاهِلِهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ، فَمَا زَالَ يُتْبِعُهُ بَصَرَهُ، حَتَّى خَفِيَ عَلَيْنَا، عَجَبًا مِنْ حِرْصِهِ.. الحديث) رواه البخاري [٩].

---

[٩] صحيح البخاري (3165).

وهذا ربما وقع للأنبياء؛ ففي الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ، عُرْيَانًا، فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى، قَالَ: بَلَى وَعِزَّتِكَ، وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ "رواه البخاري[10].

فالنفس مجبولة، ومطبوعة، على حب الخير، والاستئثار، إلا من عصمه الله تعالى بعصمة الإيمان، وقنعه بما أتاه، ولا شك أن القناعة كنز لا يفنى. وتأمل حال أكرم الخلق على الله ﷻ محمد ﷺ ففي حديث عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - أَنَّهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ: ابْنَ أُخْتِي، إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَارٌ، فَقُلْتُ: يَا خَالَةُ، مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ، التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنْ الْأَنْصَارِ، كَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهِمْ، فَيَسْقِينَا)رواه البخاري[11].

فلو كانت الدنيا علامة على كرامة، لكان أولى الناس بها محمد ﷺ، وبهذا تطيب نفس المؤمن، فإذا رأى بهجة الحياة الدنيا، وأهلها متهافتون عليها، فليذكر حال أكرم الخلق على الله ﷻ .

أما حديث (اللهم أحيني مسكينا وتوفني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين) فقد ضعفه بعض أهل العلم، وحسنه بعضهم[12]. لكن الإنسان يسأل الله عيش الكفاف، بحيث لا يحوجه إلى أحد، ولا يشغله بمتاع زائد.

﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ ﴾ أي: أُثِير، واسْتُخْرِج من الأجساد.

---

[10] صحيح البخاري (279).

[11] صحيح البخاري (2567).

[12] قال الألباني في "السلسلة الصحيحة" (1 / 555) ما خلاصته: ولا شك أن الحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الصحة ، و لذلك أنكر العلماء على ابن الجوزي إيراده إياه في " الموضوعات " و قال الحافظ في " التلخيص " (ص 275) :" أسرف ابن الجوزي فذكر هذا الحديث في " الموضوعات " ، و كأنه أقدم عليه لما رآه مباينا للحال التي مات عليها النبي ﷺ لأنه كان مكفيا، قال البيهقي : ووجهه عندي أنه لم يسأل حال المسكنة التي يرجع معناها إلى القلة ، و إنما سأل المسكنة التي يرجع معناها إلى الإخبات و التواضع ".

(وَحُصِّلَ) : التعبير بالتحصيل، يدل على الفرز، والتنقيب.

(مَا فِي الصُّدُورِ) يعني: ما تنطوي عليه الصدور، من العقائد، والمواجد. لأن القلوب في الصدور ، فيستخرج ما فيها من بر، وإيمان، أو فجور، وكفر، وعصيان.

﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ : ربما يكون المراد: عموم الناس، وربما أراد هؤلاء المنكرين. والعموم أولى. فالله ﷻ رب الجميع، لكنه ربهم ربوبية عامة، تقتضي تربيتهم بنعمه؛ من خلق، ورزق، وإعداد، وإمداد. أما ربوبيته الخاصة: فهي لأوليائه المؤمنين، وأما ربوبية خاصة الخاصة: فهي لنبيه محمد ﷺ ولإخوانه من الأنبياء. والخبير: هو العليم ببواطن الأمور، ودقائقها.

الفوائد المستنبطة

الفائدة الأولى: فضل الخيل، وشدة بأسها، وقوة أثرها في الحروب.

الفائدة الثانية: جحود الكافر لنعم الله بكفره.

الفائدة الثالثة: شهادة الأفعال على الحال.

الفائدة الرابعة: شدة تعلق الإنسان بالمال، والمتاع.

الفائدة الخامسة: إثبات البعث.

الفائدة السادسة: كمال علم الله، واطلاعه.

الفائدة السابعة: إثبات اسم الله (الخبير)، وما تضمنه من صفة (الخبرة).

الفائدة الثامنة: إثبات الربوبية العامة.